الرأسمالية هى الحرب، الحرب على الرأسمالية!

أوروبا تعرف الحرب مرة أخرى . ليست هذه المرة األولى منذ مذبحة الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ – ١٩٤٥ . مع بداية تسعينيات القرن العشرين دمرت الحرب يوغسالفيا السابقة مؤدية لموت ١٤٠ ألفا و مجازر جماعية هائلة للمدنيين تحت شعار "التطهير العرقى" كما فى سيبرنيتشا فى يوليو تموز ١٩٩٥ عندما ذبح ٨٠٠٠ رجل و فتى بدم بارد . الحرب التى اندلعت للتو مع هجوم القوات الروسية على أوكرانيا ليست فتاكة بنفس الدرجة حتى اليوم لكن ال يمكن ألحد أن يعرف كم من الضحايا سيسقط فى هذه الحرب . هى اليوم حرب أكبر من الحرب فى يوغسالفيا السابقة. ال يدور القتال اليوم بين ميليشيات أو بين دول صغيرة. تدور الحرب الحالية بين اثنين من أكبر دول أوروبا، يبلغ عدد سكانهما ١٥٠ مليون و ۴۵ مليونا على التوالى، و ذاجيشين ضخمين، ٧٠٠ ألف جندى روسى و ٢٥٠ ألف أوكرانى. أكثر من ذلك إذا كانت القوى الكبرى قد شاركت فى الحروب فى يوغسالفيا السابقة بشكل غير مباشر أو بالمشاركة فى "قوات التدخل" تحت علم االمم المتحدة . أما اليوم فإن روسيا ال تحارب أوكرانيا وحدها بل كل البلدان الغربية المشاركة فى الناتو التى رغم أنها ال تشارك بشكل مباشر فى القتال، لكنها فرضت عقوبات اقتصادية مؤثرة على ذلك البلد فى الوقت الذى بدأت فيه أيضا بإرسال االسلحة إلى أوكرانيا.

هكذا فإن الحرب التى بدأت للتو هى حدث دراماتيكى ذات أهمية خاصة، أوال و قبل أى شىء بالنسبة ألوروبا، لكن أيضا للعالم ككل. لقد أدت بالفعل لموت اآلالف من جنود الطرفين و المدنيين . و ألقت بمئات آالف الالجئين إلى الشارع . و ستؤدى إلى زيادة أسعار الطاقة و الحبوب التى ستؤدى إلى زيادة التعرض للبرد و الجوع، حيث يجد المستغلون (بفتح الغين) و االكثر فقرا فى معظم بلدان العالم ظروف حياتهم تنهار بسبب التضخم فى االسعار . و كما دائما، إنها الطبقة التى تنتج معظم الثروة االجتماعية، الطبقة العاملة، هى التى ستدفع الثمن الباهظ للحروب بين سادة العالم.

هذه الحرب، هذه المأساة، ال يمكن فصلها عن مجمل الوضع الدولى فى السنتين االخيرتين : أى الجائحة . تزايد االزمة االقتصادية سوءا، و تضاعف الكوارث البيئية . كلها عالمة واضحة على عالم يغرق فى البربرية.

أكاذيب حرب الدعاية

تترافق كل حرب بحمالت هائلة من االكاذيب . لكى تقبل الجماهير، خاصة الطبقة المستغلة (بفتح الغين) التضحيات المريعة التى تطلب منها، التضحية بحياتها فى سبيل أولئك الذين أرسلوهم إلى الجبهة، حزن أمهاتهم، أحبائهم، أطفالهم، رعب السكان المدنيين، الحرمانات، و تزايد وطأة االستغالل، يصبح من الضرورى لذلك ملء رؤوسهم بإيديولوجيا الطبقة الحاكمة.

إن أكاذيب بوتين فظة، غبية، و تعكس أكاذيب النظام السوفيتى الذى بدأ فيه حياته المهنية كضابط فى الكى جى بى، منظمة البوليس السياسى و الجاسوسية السوفيتية . إنه يزعم قيامه "بعملية عسكرية خاصة" لمساعدة سكان الدونباس، ضحايا "االبادة الجماعية"، و هو يمنع االعالم بالتهديد بالحظر من استعمال كلمة "حرب" . إنه يريد حسب كالمه تحرير أوكرانيا من "النظام النازى" الذى يحكمها. صحيح أن السكان الناطقين بالروسية فى الشرق قد تعرضوا للمالحقة من قبل الميليشيات القومية االوكرانية التى تشعر بحنين خاص للنظام النازى، لكن ال توجد هناك إبادة جماعية.

أكاذيب الحكومات و اإلعالم الغربى أكثر ذكاءا عادة . لكن ليس دائما : الواليات المتحدة و حلفاؤها، بمن فيهم المملكة المتحدة "الديمقراطية" جدا، إسبانيا، إيطاليا ... و أيضا أوكرانيا ! باعت لنا غزوها للعراق عام ٢٠٠٣ بحجة خطر "اسلحة الدمار الشامل" – المختلقة بالكامل – التى يملكها صدام حسين . التدخل الذى أدى إلى موت مئات اآلالف و ’لى مليونى الجئ فى صفوف الشعب العراقى و عشرات آالف القتلى بين جنود التحالف.

اليوم يقدم القادة "الديمقراطيون" و اإلعالم الغربى لنا خرافة الحرب بين "الغول الشرير" بوتين و "الفتى الطيب" زيلينسكى . إننا نعرف منذ وقت طويل أن بوتين مجرم عديم الضمير . إضافة إلى أنه يناسب تماما هذا الوصف . بينما يستفيد زيلينسكى من أنه ال يملك نفس السجل االجرامى لبوتين و من أنه كان قبل أن يدخل عالم السياسة، كان ممثال كوميديا معروفا (و بنتيجة ذلك أصبح صاحب ثروة هائلة مخبأة فى المالذات الضريبية). لكن موهبته التمثيلية تسمح له أيضا اليوم بلعب دوره الجديد كأمير حرب يحمل السالح . دور يتضمن منع الرجال بين الثامنة عشرة و الستين من مرافقة أسرهم التى تحاول إيجاد ملجأ آمن خارج الحدود، و مطالبة االوكرانيين بالموت فى سبيل "الوطن االم"، اى فى سبيل مصالح البرجوازية و االوليغاركيين االوكرانيين.

أنه مهما كانت ألوان االحزاب الحاكمة و مهما كانت نبرة خطابها، فإن كل الدول القومية هى قبل كل شىء، مدافعة عن مصالح الطبقة المستغلة(بكسر الغين)، أى البرجوازية الوطنية، ضد كل من المستغلين (بفتح الغين) و ضد المنافسين من بقية البرجوازيات الوطنية.

فى كل دعاية الحرب تقدم كل دولة نفسها "كضحية العدوان" بحيث يجب أن تدافع عن نفسها فى مواجهة "المعتدى" . لكن بما أن كل الدول ليست فى الواقع إال زمرا من قطاع الطرق فال معنى للسؤال عن أى عصابة من قطاع الطرق قد أطلقت الرصاصة االولى فى الصراع لتسوية الحسابات بينها . بوتين و روسيا هما من أطلقا الرصاصة االولى اليوم، لكن النانو فى الماضى، بقيادة الواليات المتحدة، قد ضم إلى صفوفه دوال كثيرة كانت قبل انهيار الكتلة الشرقية و االتحاد السوفيتى، تقع تحت هيمنة روسيا. ببدايتها الحرب تهدف عصابة بوتين إلى استعادة شىء من سطوة بالده السابقة، بمنع أوكرانيا من االنضمام إلى الناتو.

فى الواقع منذ بداية القرن العشرين أصبحت الحرب الدائمة مع كل المآسى المرعبة التى تسببها، أصبحت شيئا ال ينفصم عن النظام الرأسمالى، نظام يقوم على المنافسة بين الشركات و المنافسة بين الدول، حيث تقود الحروب التجارية إلى الحروب المسلحة. حيث يؤدى تفاقم تناقضاتها االقتصادية و أزماتها إلى إثارة المزيد من النزاعات العسكرية و الحروب . نظام يقوم على الربح و االستغالل الشرس للمنتجين يجبر فيه العمال على أن يدفعوا بدمائهم كما بعرقهم.

منذ عام ٢٠١٥ زاد اإلنفاق العسكرى العالمى بحدة . و هذه الحرب ستسرع هذه العملية بكل قوة . و داللة على هذا التداعى الفتاك : بدأت ألمانيا بإرسال االسلحة إلى أوكرانيا، هذا يحدث ألول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، و ألول مرة أيضا يمول االتحاد االوروبى شراء و إرسال االسلحة إلى أوكرانيا بينما هدد الرئيس الروسى فالديمير بوتين صراحة باستخدام االسلحة النووية إلثبات تصميمه و قدراته التدميرية.

كيف يمكننا إنهاء الحرب؟

ال يمكن ألحد أن يتنبأ بالضبط كيف يمكن للحرب الحالية أن تتطور، حتى مع االخذ باالعتبار أن روسيا تملك جيشا أقوى بكثير من أوكرانيا . هناك اليوم الكثير من المظاهرات حول العالم و فى روسيا نفسها، ترفض التدخل الروسى . لكنها ليست هذه المظاهرات هى التى ستتمكن من إيقاف العمليات الحربية . يقول لنا التاريخ أن القوة الوحيدة التى يمكنها إيقاف الحروب الرأسمالية هى الطبقة المستغلة

(بفتح الغين)، أى البروليتاريا، العدو المباشر للطبقة البرجوازية. كان ذلك هو الحال عندما أطاح عمال روسيا بالدولة البرجوازية عام ١٩١٧ و عندما ثار عمال و جنود ألمانيا فى نوفمبر تشرين الثانى ١٩١٨ مجبرين حكومتهم على الموافقة على الهدنة . إذا كان بوتين قادرا على إرسال مئات اآلالف الجنود لكى يقتلوا فى مواجهة أوكرانيا، و إذا كان كثيرون من األوكرانيين مستعدين اليوم للموت "دفاعا عن الوطن األم"، فإن هذا ألن الطبقة العاملة فى هذا الجزء من العالم ضعيفة بشكل كبير . لقد وجه انهيار االنظمة التى كانت تزعم أنها أنظمة "اشتراكية" أو "عمالية" فى عام ١٩٨٩ ضربة قاصمة للطبقة العاملة العالمية . تركت هذه الضربة آثارها على العمال الذين كانوا يناضلون منذ عام ١٩٦٨ و طوال السبعينات فى بالد مثل فرنسا و إيطاليا و المملكة المتحدة، لكن أكثر من ذلك حتى فيما كانت تسمى بلدانا "اشتراكية" مثل أولئك الذين ناضلوا بشكل جماعى فى بولندا و بإصرار هائل فى أغسطس آب ١٩٨٠ مجبرين الحكومة على إيقاف قمعها و االمتثال لمطالبهم.

ليس بالتظاهر "من أجل السالم"، ليس باختيار دعم بلد فى مواجهة بلد آخر يكون تضامننا مع ضحايا الحروب، السكان المدنيون و جنود كال الطرفين، البروليتاريون فى الزى العسكرى الذين يستخدمون كبارود للمدافع . التضامن الوحيد يكون بإدانة كل الدول الرأسمالية، و كل األحزاب التى تدعو إلى االلتفاف حول هذا العلم الوطنى أو ذاك، كل الذين يحاولون إغرائنا بأوهام السالم و "العالقات الطيبة" بين الشعوب . التضامن الوحيد الذى قد يكون مؤثرا بالفعل هو تطوير النضاالت العمالية الجماهيرية و الواعية فى كل مكان فى العالم . و خاصة يجب أن تكون تلك النضاالت مدركة لحقيقة أنها تشكل إعدادا لإلطاحة بالنظام المسؤول عن الحروب و كل البربرية التى تهدد البشرية بشكل متزايد : النظام الرأسمالى.

اليوم، إن شعار الحركة العمالية القديم الذى ظهر ألول مرة فى البيان الشيوعى عام ١٨٤٨ هو اليوم على االجندة أكثر من أى وقت مضى:

ليس للعمال وطن!

يا عمال العالم اتحدوا!

من أجل تطوير النضال الطبقى للبروليتاريا العالمية!

التيار الشيوعى الأممى

٢٨ – ٢ – ٢٠٢٢

www.internationalism.org

international@internationalism.org